

## البلاغة العربية والإقناع

أ/ مليكة بن عطاء الله  
أ.د. لبسوخ بوجمليين  
جامعة قاصدي مرباح ورقلة  
كلية الآداب و اللغات.

### الملخص

يتناول هذا البحث العوامل التي نحت بالبلاغة العربية نحو الإقناعية والتأثيرية، كما يتناول مظاهر الإقناع في البلاغة العربية. فقد قامت البلاغة العربية في بداياتها على مبدأ البيان، ثم نحت في نموها وتطورها نحو البرهان والتعليل بسبب عوامل أثرت فيها، منها ارتباط البلاغة بالنص القرآني المبني في أساسه على الحجة، ثم تمازج الثقافات بفضل الترجمة، ثم ارتباط البلاغة بالعصر العباسي عصر الجدل و الكلام، كما كانت مساهمة علماء الكلام واضحة في طبع البلاغة بالطابع العقلي، أما الخطابة التي هي وسيلة للمناظرة والإقناع فقد مالت بالبلاغة إلى العقلانية . كما يتناول البحث مظاهر الإقناع في البلاغة العربية كالقياس، المثل، الاستعارة، الشاهد، الأسلوب، المقابلة و الطباق.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، الإقناع ، التأثيرية، العقل البرهاني، العقل البياني.

### Résumé

Le présent article aborde les facteurs qui ont orienté la rhétorique arabe vers la persuasion et l'influence, il traite aussi les manifestations de la persuasion dans la rhétorique arabe qui s'est penchée au début sur le principe de l'éclaircissement, puis elle s'est développée vers la démonstration et la justification. Cette évolution est due à l'intime relation avec Le Coran (fondé sur l'argumentation), voire la traduction et l'interculturalité surtout à l'ère abbâsîde, ère de la polémique et la parole. En effet, la rhétorique s'est marquée par le rationalisme des spécialistes des sciences du langage.

Il aborde de même les manifestations de la persuasion dans la rhétorique arabe, telles que *l'analogie, l'illustration, la métaphore, le témoin, le style, l'équivalence, et l'antonymie.*

**Mots clés:** la rhétorique arabe, la persuasion, l'influence, le raisonnement rationnel, le raisonnement rhétorique.

### مدخل نظري

لقد نشأت الثقافة العربية في تربة البيان، أو النص (الشعري خصوصا) فأخذت منه الشعاعية والتأثيرية والعاطفية، وكانت الأحكام النقدية لأوائل النقّاد انطباعية ذوقية، لا تعلل الظاهرة ولا تبين أسبابها، بل كانت عبارة عن ملاحظات فطرية نابعة عن غريزة و تذوق، اهتمت بحسن الصياغة و سلامة العبارة و إصابة المعنى. و ترجمت هذا الاتجاه قضايا نقدية منها قضية الطبقات، وقضية البديع، وقضية السرقات، وقضية عمود الشعر. ثم لما نزل القرآن الكريم أخذ منه علماء اللغة الأحكام الموضوعية المبنية على الدليل و الحجة و البرهان.

ثم بدأت مرحلة جديدة من مراحل الدرس البلاغي في القرن الثالث الهجري انطلاقا من الجاحظ (ت255هـ) وابن المعتز (ت296هـ) تبلور فيها علم البلاغة علما مستقلا له أصوله و قواعده، ثم نحا الدرس البلاغي نحو التعليل والتفسير والقياس و البرهان و الاستدلال بسبب عوامل عديدة أثرت فيه، من هذه العوامل:

تأثير النص القرآني في الثقافة العربية، ثم تأثر العرب بثقافات الأمم الأخرى خاصة اليونانية، وهي ثقافة ميزها العقل البرهاني أكثر من العقل البياني، ثم ارتبطت البلاغة و تطورها بالعصر العباسي، عصر الجدل و الاحتجاج في الكثير من القضايا، و الأهم هو ارتباط البلاغة بعلماء الكلام من معتزلة و أشاعرة، فقد كان للمعتزلة فضل عظيم في تطوير الدرس البلاغي و صبغه بالطابع العقلي، لأنهم تأثروا بالفلسفة اليونانية، نتج عن هذا العنصر ارتباط البلاغة بالخطابة، التي ازدهرت و تطورت للحاجة إليها، و الخطابة تعتمد على وسائل الإقناع بالدرجة الأولى.

### عوامل الإقناع في البلاغة العربية:

لقد حملت البلاغة العربية في طياتها الإمتاع كما حملت الإقناع، اتسمت في بذورها الأولى بالإمتاع، ثم مالت نحو الإقناع في نموها و تطورها، كما جمعت بين اللغة و العقل، هذا الأخير مارس سلطته على اللغة، و بين الشعر والنحو الذي ترصد للشعر يقننه، و بين البيان و البرهان الذي فسر و علل ظواهر البيان. " وقيام الثقافة العربية على مبدأ البيان يعد ميزة رائدة، و ليس عيباً أو مثلية، كما أن قيام الثقافات الأخرى- و خاصة اليونانية- على العقل البرهاني لا يعد مفخرة و تألها<sup>1</sup>، على أنه كانت هناك عوامل قوية ارتبطت بالبلاغة و غيرت من مسارها من الإمتاع إلى الإقناع وأبرزت عامل الإقناع فيها وهي:

### 1- ارتباط البلاغة العربية بالنص القرآني:

لما جاء النص القرآني تحرر الفكر العربي من سيطرة الشعر، فقد كان سلطان الشعر كبيراً عليه، ولا عجب، فالشعر أهم ظاهرة حضارية كانت تميز ثقافة الإنسان العربي، وبنزول القرآن الكريم أضاف ظاهرة لغوية جديدة لم تعهدها العرب على فصاحتها، لذلك تحدى القرآن الكريم ببلاغته العرب أرباب الفصاحة والبيان، قال تعالى ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:110]. وقد أثمرت هذه الثنائية (القرآن، الشعر) موروثاً حضارياً ضخماً كانت البلاغة جزءاً منه.

وبالإضافة إلى بلاغته و فصاحته فإن القرآن الكريم مبني في أساسه على الحجة و البرهان فقد نحا بالبلاغة "نحو التعليل، لان أهم خصائص النص القرآني- فضلا عن كونه نموذج البلاغة و الإعجاز - اعتماده على الحجة كمبدأ<sup>2</sup>.

ولخدمة القرآن الكريم والمحافظة عليه ظهرت الكثير من التأليف و الدراسات، كما اشتغلت بالقرآن طوائف كثيرة من العلماء، كل من جهة اختصاصه، و كل هؤلاء استرعت اهتماماتهم فنون التعبير في القرآن. و نشأت مجموعة من العلوم كانت في الأصل لخدمة النص القرآني منها الفقه و التفسير و علوم اللغة و البلاغة وغيرها. " و كان البحث عن وجود الإعجاز إلى الخوض بالضرورة في البحوث البلاغية، فأخذوا يدرسون فنون البلاغة العربية كي يقفوا منها على سر التعبير القرآني، و كشف النواحي التي من أجلها عجز العرب عن أن يأتوا بأفصر سورة<sup>3</sup> و كان لقضية الإعجاز دور عظيم في توجيه الثقافة العربية إلى العقلانية والموضوعية والاستدلال و القياس، كما دفعتهم إلى ميدان التأويل الذي عماده العقل والمنطق.

### 2- تمازج الثقافات ( الترجمة ):

لما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية و دخلت أمم كثيرة في الإسلام امتزجت ثقافتهم بالثقافة العربية الإسلامية، وحدث تفاعل و تمازج نتج عنه صراع فكري واسع، فرض حالة من الجدل، و مما زاد من ثراء البلاغة ازدهار حركة الترجمة خاصة ما نقل من كتب اليونان و من فلسفتهم و آرائهم اللغوية و البلاغية والفلسفية و لعل من بين القضايا التي أثارها غير العرب قضية إعجاز القرآن، التي أنتج البحث فيها كما هائلا من المؤلفات و الدراسات غدت البلاغة العربية وساهمت في نموها.

و لعل أكثر من انفتح على الثقافات الأجنبية و نهل منها بشكل كبير هم أئمة المعتزلة، وذلك لحاجتهم إلى البلاغة والبيان في مناظرة خصومهم من أهل الملل و النحل. و ترجمت كتب اليونان خاصة و انتقلت فلسفتهم ومنطقتهم و آرائهم العربية و البلاغية إلى العرب.

### 3- ارتباط البلاغة بالعصر العباسي:

و هو عصر كثر فيه الجدل و الكلام و الاحتجاج، و برزت فيه قضايا نالت من اهتمام العلماء والمتكلمين منها قضية إعجاز القرآن، و المحكم و المتشابه من آيات الذكر الحكيم، و القضاء و القدر، و منزلة مرتكب الكبيرة، و مجاز القرآن و تأويل المتشابه منه.... و غيرها من القضايا، كما توطدت دعائم الأحزاب السياسية و الفرق الدينية، كالمرجئة والقدرية و الجبرية و المعتزلة و الشيعة، " فلم يكد القرن الأول الهجري ينتهي حتى كانت الأحزاب الدينية قد توطدت أركانها، و انتظمت صفوفها، واتسعت دعوتها، و اشتد بينها الخلاف، و شاع الجدل.. و كان طبيعيا أن يخوض كل فريق و حزب على إبلاغ دعوته والدفاع عن عقيدته بإظهار الحجة و دفع الشبهة، و منازلة الخصم... و ما سلاح ذلك إلا فصاحة اللسان قوة البيان، وحدة التأثير، فهذا هو ميدان الفصاحة و البلاغة"<sup>4</sup>.

ومن المسائل التي ثار حولها الخلاف و كثر الجدل قضية الآيات المتشابهات، فقد وردت في القرآن الكريم " آيات كانت مثار خلاف و جدال ففيه آيات تدل على الجبر و الإرغام، وأخر تدل على الكسب و الاختيار، وفيه آيات تنزه الله عن مشابهة المخلوقات، و آيات تنسب إليه أعضاء مادية كاليد و العين، وتنسب إليه صفات كالقلم و المجيء و الذهاب والاقتراب، و آيات تنفي رؤية الله أو الإحاطة بكنهه، و آيات تثبت أن هذه الطريقة واقعة محققة يوم القيامة"<sup>5</sup>

و ما تناولته هذه الآيات من أمور العقيدة كانت محور جميع تلك المجادلات، و مضت كل فرقة تؤول الآيات المتشابهة في نظرها و تحملها على مذهبها، و انقسم الناس بين جبرية ترى الإنسان مجبر في أفعاله و بين قدرية ترى الإنسان مخير في أفعاله. و أدى هذا إلى الخوض في مسألة القضاء و القدر، ثم كثر الخلاف حول مرتكب الكبيرة كافر هو أو مسلم وهكذا.

### 4- ارتباط البلاغة بعلماء الكلام:

لما كان المهاجمون للقرآن من المفكرين، المتزودين بألوان الثقافات الأجنبية من فارسية و هندية صار دفاع علماء اللغة و المحدثين سطحي التأثير، لأنهم لم يتسلحوا بما تسلح بهم خصومهم من أصحاب الملل والديانات الأخرى. فانبرى علماء الكلام من معتزلة و أشاعرة بطبيعتهم المتحررة الجريئة والمتسلحة بالدين والفلسفة و الثقافة الواسعة، مدافعين عن الإسلام مجادلين أعدائهم عارضين حججهم.

وقد كان للمعتزلة في أول أمرهم شأن عظيم عند الناس، فقد ملئوا مساجد البصرة بجدهم و حاجهم، و جذبوا بحسن بيانهم و قوتهم في الإقناع و إفحام الخصوم الشباب إليهم، قال الجاحظ: " و كان أهل البصرة فيما يرون من آداب المعتزلة يبعثون أولادهم ليتأدبوا بأدبهم"<sup>6</sup>، و لا أحد ينكر ما لعلماء الكلام خاصة المعتزلة من فضل عظيم على الدرس البلاغي، فقد صنفوا الكتب في إعجاز القرآن و أثروا ساحة البلاغة، "وقد نشأت البلاغة في أحضان بيئة المتكلمين- و خاصة المعتزلة - و

ازدهرت و ترعرعت في هذه البيئة أيضا، ثم مضت تتضح وتتكامل على أيد علماء هذه الطائفة النشيطة...تعهدتها في أول أمرها...عمرو بن عبيد المعتزلي (ت 144هـ)، و بشر من المعتمر (ت 210هـ)، و أبي عثمان الجاحظ (ت 255هـ) و تعهدتها في فترة الطور و الارتقاء الرماني (ت 386هـ)، و القاضي عبد الجبار (ت 415هـ) و أمثالهما حتى بلغت شأوا بعيدا من النضج والنمو بجهود الزمخشري (ت 538هـ) و قد كان اثر المعتزلة في ميدان البلاغة عظيما<sup>7</sup>.

و استطاع المعتزلة أن يجتذبوا إليهم أنظار الشعراء و الأدباء، وقد تتلمذ على أيديهم الكثير من الشعراء من أمثال بشار وأبي نواس و أبان اللاحقي و العتابي و منصور النميري و أبي تمام.

و في زمن المأمون وصل المعتزلة إلى الحكم، حين اعتنق المأمون الاعتزال، واستطاعوا أن يزينوا له القول بخلق القرآن، فأعلن ذلك، و دعا إليه الناس بقوة السلطان، و حملهم عليه قهرا، و قاسى الإمام احمد بن حنبل على يديهم الأمرين، و ذاق العذاب أشكالا، و هو راسخ على عقيدته يرفض القول بخلق القرآن، و عُرفت هذه المحنة التي مرت على الناس في زمن المأمون و المعتصم و الواثق بمحنة خلق القرآن، و كان لها أسوأ الأثر في نفوس الناس. و فيها امتحن العلماء، فمنهم من سجن و منهم من مات في سجنه، و انفض الناس عن المعتزلة، و أخذ نجمهم في الأفول<sup>8</sup>.

أما الأشاعرة فساهموا كذلك بمؤلفاتهم في تطوير البلاغة منهم الإمام الباقلاني (ت 405هـ) و من بعده الإمام الذي تدين له البلاغة بالكثير عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) و يضيق المقام عن ذكر جهودهم في تطوير البلاغة و فنونها و نعتقد أن كل عالم منهم جدير ببحث منفصل يتناول أعماله و إبداعاته في هذا المجال.

##### 5- ارتباط البلاغة بفن الخطابة:

الخطابة من أهم الفنون التي تبنى على الإقناع، و كان لكتب اليونان المترجمة فضل كبير في ازدهار الخطابة لاعتناء اليونان بها و بالجانب الجدلي الاستدلالي، وقد تنبه أرسطو إلى تميز النص الخطابي عن النص الشعري فألف في كل منهما كتابا مستقلا، " و عناصر بناء الخطابة عند أرسطو ثلاثة: وسائل الإقناع أو البراهين، و الأسلوب أو البناء اللغوي، و ترتيب أجزاء القول، ثم هناك عناصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو، و منهم البلاغيون العرب، عناصر مستقلا، و يتضمن الحركة و الصوت<sup>9</sup>، و هذه العناصر تتسحب على الخطابة عند العرب إلا أن العنصر الثاني مقدم عند العرب على بقية العناصر لأن ثقافتهم تقوم على مبدأ البيان و اللغة.

لقد ازدهرت البلاغة العربية بازدهار الخطابة في فن الإسلام و في العصر الأموي، و مالت إلى الهدوء والعقلانية في العصر العباسي " و الخطابة كانت نتيجة الثراء و الصراع الفكريين اللذين كانا يكتنفان البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، و خير من حمل لواء الخطابة و أبدع فيه فرقة المعتزلة التي أخذت على عاتقها مهمتين كبيرتين أسدت بهما خدمة كبيرة للفكر الإسلامي:

أ- المهمة الأولى: " تأسيس فكر إسلامي علمي خالي من كل ما هو ميتافيزيقي تسليمي.

ب- المهمة الثانية: مواجهة الأفكار الخارجية الهدامة، و بيان فسادها و ضعفها.

و كانت الخطابة هي الوسيلة المثلى ( و ليست الوحيدة ) لتجسيد هذين الهدفين.<sup>10</sup>

و احتلت الخطابة حيزا من اهتمام المتكلمين، فقد كانت وسيلتهم في المناظرة والإقناع، و سلاحهم في الجدل و لا أدل على ذلك مما أورده الجاحظ في كتابه " البيان و التبيين " فإنه لم يترك مسألة صغيرة و لا كبيرة تتعلق بالخطابة و قواعدا إلا أودها، ولو أردنا تفصيل ذلك لطال بنا الحديث. إلا أننا نخلص إلى أن الخطابة في عهده صارت صناعة تحتاج إلى التعلم لأنها تتبنى على أصول و قواعد.

## مظاهر الإقناع في البلاغة العربية:

اتسمت البلاغة العربية بكثير من صور الإقناع حتى في مراحلها الأولى، فما الاستعارة و التشبيه إلا صورا مبنية أساسا على التمثيل و هو صورة من صور الإقناع، ومن مظاهر الإقناع في البلاغة العربية:

## 1 - القياس:

ذكر الدكتور محمد العمري للقياس الخطابي أنواعا منها التعارض و التضاد، ومن أمثلة ذلك:

قال الحجاج: زعمتم أنني ساحر، وقد قال الله تعالى: ﴿و لا يفلحُ الساحرُ حيثُ أتى﴾ [طه: 69]، و قد أفلحت... أفلح الحجاج إذن ليس الحجاج بساحر<sup>11</sup>. و منها القياس المضمرة: " قول الخطيب: " الدنيا عرض زائل، يأكل منها البر والفاجر"، و التقدير: ما يأكل منه البر و الفاجر عرض زائل، الدنيا يأكل منها البر و الفاجر. = الدنيا عرض زائل<sup>12</sup>. " و من أشهر القياسات المضمرة في القرآن ما يسمى قياس الخلف، وهو إثبات الأمر ببطلان نقيضه، كما في سورة الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وإذا لم تفسدا، فليس فيهما إلا إله واحد<sup>13</sup>

## 2 - المثل:

وهو من أوسع طرق الاستدلال، لما يحققه من إقناع و تأثير وهو " إثبات حكم واحد جزئي لثبوته في جزئي آخر، بمعنى مشترك بينهما"<sup>14</sup>، قال ابن وهب في البرهان: "وأما الأمثال فإن الحكماء العلماء و الأدباء لم يزلوا يضرِبون و يبينون للناس تصرفُ الأحوال بالنظائر و الأشكال، و يرون هذا النوع من القول أنجع مطلباً، وأقرب مذهباً"<sup>15</sup>. ولذلك قال الله عزَّ وجل: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ} [الروم: 58] وقال: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الزمر: 26]، وقال: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: 43].

" والمثل مقرون بالحجة، ألا ترى أن الله -عزَّ وجل- لو قال لعباده: إني لا أشرك أحداً من خلقتي في ملكي لكان ذلك قولاً محتاجاً إلى أن يدل على العلة فيه، ووجه الحكمة في استعماله فلما قال: ( لا ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الروم: 27] لأنهم عالمون أنهم لا يقرون أحداً من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم، بل يأنفون من ذلك و يدفعونه، فالله -عز وجل- أولى بأن يتعالى عن ذلك"<sup>16</sup>. و يدخل تحت المثل التشبيه بأنواعه و الاستعارة بأنواعها.

## 3 - الاستعارة:

الاستعارة " ضرب من التشبيه و نمط من التمثيل، و التشبيه قياس، و القياس يجري فيما تعيه القلوب، و تدركه العقول، و تستفتي فيه الإفهام و الأذهان، لا الأسماع و الأذان"<sup>17</sup>، و الاستعارة أداة قوية في الإقناع لارتباطها بفكرة المقام، و لجعلها المعنوي ملموساً و المجرد محسوساً وذلك بهدف تقريب المعنى للمتلقى، و بيان الحجة، و نستطيع القول أن جلَّ الصور البيانية و المحسنات البديعية تمارس الإقناع و التأثيرية على المتلقي إذا جاءت بعفوية من دون تكلف، و أمثلة الاستعارة في القرآن الكريم أكثر من أن تعد، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ( وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ

الذين لا يُؤمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ( [الإسراء: 46] .  
الشاهد:

و هو عبارة لها من القدسية و التاريخية ما يجعلها محل قبول السامع و قد تكون من قرآن أو حديث أو من شعر أو الحكمة، و المثل أول القول المشهور، " ويسمىها أرسطو الحجج الجاهزة أو غير صناعية... و تكسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها<sup>18</sup> .

#### 4 - بلاغة الأسلوب و جمال العبارة:

"إن عملية التأثير و الإقناع لا تتم على مستوى العقل فقط، و إنما تتم أيضا على مستوى القلب والشعور"<sup>19</sup>، و عنصر الأسلوب يحتل الصدارة في البلاغة العربية، وربما يعود ذلك إلى هيمنة الشعر على قلوب العرب فهو عملهم الأول، و كذا قيام الثقافة العربية على مبدأ البيان، و قد اعتمد القرآن على هذه الوسيلة في التأثير على القلوب، و في السيرة أن الكفار استمعوا للرسول " و هو يتلوا سورة النجم فلما وصل إلى قوله تعالى ( فاسْجُدْ وَارْتَدُّوا لِرَبِّكَ وَاعْبُدْهُ وَاسْتَمِعُوا لِعَلَّكُمْ تَرْجُونَ ) [النجم: 62] ، سجدوا جميعا تأثرا بقوة أسلوبه و بلاغة عباراته، و لعل خطبة الحجاج الشهيرة في أهل البصرة التي توعدهم فيها وهددهم خير مثال على قوة التأثير .

و تعود أهمية الأسلوب في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس " يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقول كما ينبغي " <sup>20</sup> وهي حقيقة ملموسة إذ أن الذي يحمل الإنسان على العمل هو القلب لا العقل، كما يدخل في إطار الأسلوب الجانب الصوتي الإيقاعي خاصة في الشعر والخطابة لما للإلقاء من تأثير على القلوب، ولا أدل على ذلك من خطبة الحجاج الشهيرة التي ألقاها على أهل البصرة.

كما لا ننسى أن الإيقاع الداخلي المتوفر في كثير من صور البديع كالجناس و السجع، و الطباق و غيرها، ينتج موسيقى داخلية مؤثرة في نفس المتلقي من أمثلة ذلك في القرآن الكريم و هي كثيرة نحو: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13، 14]، كما يضاف إلى جمال الأسلوب هيئة المتحدث و سمته و حركاته، كما أن للنبر و التنغيم أثر واضح في التأثير في المتلقي.

#### 6 - المقابلة و الطباق

المقابلة و الطباق من أظهر أشكال التضاد الدلالي، و تبرز قيمتهما في ما يثيرانه من مشاعر ودلالات داخل السياق الأسلوبي، و مناوشة الشعور و مباغتته، و هما من الظواهر البديعية الخصبة في دلالتها، كما أنهما وسيلة فنية تكشف الصراع و التناقض الفكري و النفسي الداخلي و الخارجي في الأعمال الأدبية، بل إن الحياة نفسها تقوم على مبدأ التضاد و التقابل بين الأشياء، فالفرح يقابله الحزن، و الضحك يقابله البكاء و الجنة تقابل النار و الخير يقابله الشر و الحياة تقابل الموت...

والتقابل المعجمي بين الكلمات يكشف عن تقابل أعرق بين المعاني، فحين نتأمل قوله تعالى: ( وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكَى وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا ) [ النجم، 44، 43 ] نجد أن الآيتين تعكسان تقابلا

معجميا بين الإضحاك والإبكاء وبين الإحياء و الإمامة، هذا التقابل يكشف عن تقابل باطني بين القوة والإرادة الإلهية في مقابل العجز البشري.

جاء في لسان العرب أن تطابق الشيطان إذ تساويا، والتطابق هو الاتفاق و طابقت بين الشيطان إذا جعلتهما على حد واحد، وسميت السموات الطباق لمطابقة بعضها بعضا أي بعضها فوق بعض<sup>21</sup>.

وهذا المعنى اللغوي هو الذي أوحى إلى العلوي بتسمية الطباق والمقابلة بالمقابلة، لأن الطباق يشعر بالتمائل والاتفاق..، أما المقابلة فهي المواجهة، والتقابل مثله، وقبالة الطريق هي ما ستقبلك منه، وهو قبالك وقبالتك أي تجهك<sup>22</sup>.

عرّف السكاكي الطباق في الاصطلاح بقوله: " وهي أن تجمع بين متضادين"<sup>23</sup> و عرّف المقابلة بقوله: " وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديهما"<sup>24</sup>. ولم يتوسع السكاكي في بحث هذا اللون البديعي كما توسّع فيه ابن الأثر، الذي عبّر عن المعنى ذاته في حده للمقابلة، يقول معرفة الطباق والمقابلة بقوله: " المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده، كالسواد والبياض والليل والنهار"<sup>25</sup>، والشاهد في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: 82] والفرق الكمي واضح بين الطباق والمقابلة لأن الطباق " هو أن يُجمع في الكلام بين ضدين"<sup>26</sup>. أما أنواعه فهو نوعان:

طباق الإيجاب، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: 18]، وطباق السلب، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ] [الروم: 6، 7]

كما يوجد طباق يكون فيه اللفظان حقيقيين، وآخر يكون اللفظان فيه مجازيين، مثل قوله تعالى: ( أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ ) [الأنعام: 122] فالموت والحياة هنا لفظان مجازيان، المراد بهما الهداية والضللال.

دمج ابن الأثير الطباق والمقابلة وجعلهما تحت عنوان واحد هو (المقابلة)، لأن التقابل لا يكون بين المتضادات فقط، بل قد يكون بين المعنى ومثيله، أو بين المعنى وما ليس بضده، وخالف السكاكي الذي فصل بين الطباق والمقابلة على الرغم من أن الفرق بينهما كمي لا كيفي. أما العلوي فرأى أنه من الأجود أن يلقب هذا النوع بالمقابلة، "لأن الضدين يتقابلان، كالسواد والبياض، والحركة والسكون، وغير ذلك من الأضداد من غير حاجة إلى تلقيبه بالطباق والمطابقة، لأنهما يُشعران بالتمائل"<sup>27</sup>، و هذا نوع من التجديد دعا إليه بعض النقاد المحدثون من أمثال الدكتور رجاء عيد في كتابه (فلسفة البلاغة) حيث سمى هذا النوع بالطباق، يقول: " ولا يجدي إسراف البلاغيين في تفرعاتهم له وليس هناك معنى للحديث عن الطباق والمقابلة فما هذا إلا ذاك"<sup>28</sup>.

ونضم صوتنا إلى صوت الدكتور رجاء عيد في ضرورة دمج الشكليين البديعيين، ونخالفه في التسمية، فالأجدر تسميتهما بالتقابل، لأن الطباق والتطابق يوحي بالتشابه و التماثل والتساوي.

### الأهمية الاتقاعية و الدلالية للمقابلة والطباق

إن الأشكال البديعية وسيلة تعبيرية لها أهميتها في البناء اللغوي، سواء التي يغلب عليها التناسق الصوتي، أو تلك التي تصنّف ضمن المستوى الدلالي، فحاجة الأسلوب إلى الأشكال البديعية اللفظية والمعنوية ليست من قبيل الترف الفني، " فكثيرا ما يكون لها دور كبير في تأكيد المعنى وتثبيتته، أو إيضاحه وتقريبه، أو خلق جو مناسب للمعنى ليسهل إدراكه وتصوره، أو إضفاء موسيقى تجذب إليها القلوب وتؤثر فيها".<sup>29</sup>

وتعتمد الأشكال البديعية بنوعها على قاعدة أساسية هي التكرار، الذي يبرز الجانب الإيقاعي المتمثل في الموسيقى الداخلية كما يبرز الناتج الدلالي، وهذا الإيقاع الصوتي المتكرر يكسب الأسلوب قوة تأثيرية، تقنع المتلقي وتحمله على المشاركة الوجدانية، إلى جانب الثراء الدلالي الذي تحتكم عليه، وطبيعي أن يكون الناتج الإيقاعي في بعض الأحيان على حساب الناتج الدلالي.

فالمقابلة مثلا ظاهرة أسلوبية تختزن ثراء دلاليا كبيرا يمارس الإقناع على المتلقي؛ فعند مقابلة الشيء بمثله نكتشف معاني بديعة، وهو تقابل للمعاني تحدث عنه ابن الأثير ثم العلوي؛ فحين نتأمل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [ الحج، 63 ] وقوله تعالى: ( لُئِلاَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ( الحج: 64 ] وقوله تعالى: ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ) [ الحج: 65 ] ، لما كان الموضوع موضع رحمة بالخلق بإنزال الغيث وإخراج النبات في الآية الأولى، ولأنه الخبير بما ينفعمهم و ما يضرهم في إنزال الغيث، فصل الآيات بقوله: ﴿ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾، وفي الآية الثانية فصل بقوله: ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ لأنه قال: ( لُئِلاَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾، فهو الغني الذي له ما في السموات وما في الأرض، الجواد، الكريم، وإذا جاد وأنعم استحق الحمد من الخلق، فذكر الحمد ليدل على أنه غني نافع للخلق بغناه. وفي الآيات الثالثة فصل بقوله: ﴿ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾. لأنه عدّد للناس ما أنعم به عليهم من تسخير ما في الأرض، وإجراء الفلك في البحر، وجعل السماء فوقهم وإمساكه إياها عن الوقوع، ففصل بقوله ( لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾، لأن هذا الفعل فعل رؤوف رحيم ومعظم آيات الذكر الحكيم جاءت على هذا المنوال.<sup>30</sup>

## الخاتمة

بعد أن عرفنا العوامل والأسباب التي أثّرت في البلاغة العربية و أصبغتها بالصبغة العقلية، ورأينا مظاهر ذلك التأثير، وجدنا أن التأثيرية و الإقناع في البلاغة لا تقتصر على ظواهر عقلية كالمثل و القياس و الشاهد وغيرها، بل تتعداها إلى مظاهر هي في حقيقتها ذات طابع إمتاعي كجمال الأسلوب و بلاغة العبارة وبعض صور البيان و ألوان من البديع. ثم إن الإقناع و التأثير لا يتم على مستوى العقل فقط، بل هناك إقناع و تأثير قد يكون أعمق وهو الذي يتم على مستوى القلب، إذ إن الاستعارة و المقابلة و الطباق و جمال الأسلوب و بلاغة العبارة و نبرة الصوت و هيئة المتكلم، من شأنها جميعا أن تؤثر في قلب المتلقي و تحمله على المشاركة الوجدانية.

## الإحالات

1- "البلاغة العربية و آلية الحجة" ، د/ بلقاسم حمام، مقال نشر بمجلة الأثر، دورية أكاديمية محكمة، تصدر عن كلية الأدب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد الرابع/ماي/2005م، ص 54

2 - نفسه، ص 56



- 3 - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني (نشأتها و تطورها حتى القرن السابع للهجري) ، د/ أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي القاهرة، 1410-1990، ص 34.
- 4 البلاغة بن العهدين ( في ضلال الذوق الأزلي و تحت سلطان العلم العربي )، د/محمد نايل احمد، دار الفكر العربي، دط ، 1993، ص 38
- 5 - / التراث النقدي و البلاغي للمعتزلة ( حتى نهاية القرن السادس الهجري )، وليد القصاب، دار الثقافة ، الدوحة، دط، 1985، ص 13.
- 6- نفسه، ص 22
- 7 - نفسه، ص 5
- 8 - يُنظر نفسه، ص 27، 28
- 9 - في بلاغة الخطاب الإقناعي، د/ محمد العمري، ( مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً )، إفريقيا الشرق، ط2، 2002ص 20، نقلا عن كتاب الخطابة لأرسطو، الترجمة العربية القديمة، تح عبد الرحمان بدوي، ص 181.
- 10 - البلاغة العربية و آلية الحجة، ص 58
- 11 - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 73.
- 12 - نفسه، ص 76.
- 13 - نفسه، ص 77.
- 14 - التعريفات، الشريف الجرجاني، تح نصر الدين تونسي، ط1، ص114.
- 15 - البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تح حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، دط، دت، ص 117.
- 16 - نفسه، ص 118.
- 17 - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، ط1، 1412هـ - 1991م، ص20.
- 18 - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 90.
- 19 - البلاغة العربية و آلية الحجة، ص60.
- 20 - في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 97، نقلا عن كتاب الخطابة لأرسطو.
- 21 . لسان العرب، مج10، (مادة طبق)
- 22 . نفسه، مج11، (مادة قبل)
- 23 . مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1420 هـ - 2000م، ص 533.
- 24 . نفسه ص 533
- 25 . المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق الشيخ كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1419 هـ - 1998م، ص 244
- 26 . نفسه، ص 413
- 27 . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الأعجاز، يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق د. عبد الحميد هندواوي، ط1، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1423هـ 2002م، ج2، ص 197.
- 28 . فلسفة البلاغة بين التقنية، رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص 220.
- 29 . فنون بلاغية، أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1395هـ . 1975م، ص 210
- 30 . يُنظر الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام و المنثور، ابن الأثير، تح الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1375هـ . 1956م، ص 216.

### قائمة المصادر و المراجع

. القرآن الكريم برواية ورش.

- 1 - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تح محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، ط1، 1412هـ - 1991م.
- 2 - البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تح حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، دط، دت.

- 3 - البلاغة بن العهدين ( في ظلال الذوق الأزلي و تحت سلطان العلم العربي )، د/محمد نايل احمد، دار الفكر العربي، دط ، 1993.
- 4 - "البلاغة العربية و آلية الحجة" ، د/ بلقاسم حمام، مقال نشر بمجلة الأثر، دورية أكاديمية محكمة، تصدر عن كلية الأدب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد الرابع/ماي/2005م.
- 5 - التعريفات، الشريف الجرجاني، تح نصر الدين تونسي، ط1، 2007.
- 6 - التراث النقدي و البلاغي للمعتزلة ( حتى نهاية القرن السادس الهجري )، وليد القصاب، دار الثقافة ، الدوحة، دط، 1985.
- 7- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام و المنثور، ابن الأثير، تح الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1375 هـ . 1956م.
- 8 - في بلاغة الخطاب الاقناعي، د/ محمد العمري، ( مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً )، إفريقيا الشرق، ط2، 2002.
- 9 - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج2، ط1، 1423 هـ 2002م.
- 10 - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ط5، 1412 هـ . 1992م.
- 11 - المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني (نشأتها و تطورها حتى القرن السابع للهجري) ، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي القاهرة، 1410- 1990.
- 12 . المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق الشيخ كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1419 هـ - 1998م.
- 13 . مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1420 هـ - 2000م.
- 14 . فلسفة البلاغة بين التقنية، رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- 15 . فنون بلاغية، أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1395 هـ . 1975م.

## الانزياح الإيقاعي في شعر مصطفى الغماري

(ديوان أسرار الغربية أنموذجاً)

الأستاذ: نور محمد

جامعة تلمسان

**ملخص:**

على الرغم من تباين آراء الباحثين حول مفهوم الإيقاع وطرق توليده، إلا أنهم يؤكدون على أن الصفة الطبيعية له هي الصوتية المتناغمة التي تكسبه كثيراً من الجمالية، ولذلك فإن هذا التناغم الصوتي هو الذي يخلق انزياح الإيقاع باعتباره أصواتاً متفردة تخلق المفاجئة والدهشة. وقد نحا الشاعر مصطفى الغماري هذا المنحى ففسح انزياحاته الصوتية على الزخافات والتجنيس والوقفات الدلالية والعروضية...

**Abstract:**

Despite the divergent views of researchers around the concept of rhythm and methods generated, but they contend that the natural character of his sound is harmonious, which earns much of the aesthetic, so this is the voice of harmony that creates a shift of rhythm as a unique voices create a sudden and surprising. Poet Mustafa Ghemari has tended this acoustic trends deviation on paronomasia and significant stops and Prosody...

**Résumé :**

Le concept de rythme et les méthodes de sa génération ont fait toujours de polémique entre les chercheurs qui sont néanmoins restés unanimes sur le caractère inhérent de sa musicalité harmonieuse, source de sa dimension esthétique. Le Poète Mustafa Ghemari en est l'exemple avec les écarts que son œuvre manifeste.

**توطئة:**

تؤثر الموسيقى تأثيراً فعالاً في بلورة التشكيل الجمالي للنص الشعري، و تتضافر فيه الأصوات اللغوية- وفق نظام خاص- لتحدث إيقاعاً يعبر عن مختزنات الحالة الشعورية، وهذا لا يتأتى للشعر إلا بالإيقاع الذي تتفاعل فيه الموسيقى الخارجية الناتجة عن الوزن الشعري، وأنظمة تشكيل القوافي، مع الموسيقى الداخلية المنبثقة من تضام الصوت إلى الصوت، مروراً بتعاقب الكلمة بالكلمة، وانتهاءً بتشابك الجملة بالجملة، مع ما ينضاف إلى ذلك من تسخير لطاقت البنى الدلالية و محاورها الاستبدالية.

ومن خلال هذه التناغمات ينتج الإيقاع الشعري، الذي يستثير المتلقي، ويبعث فيه مشاعر منشطة أو مهدئة حسب طبيعة النغم من شدة ولين. و بهذا يضيف الإيقاع الموسيقي قوة جمالية يكاد يفقدها الشعر إن لم توجد فيه.